مصر منذ أربعمائة سنة

(٤)

المقابلة الثالثة

وفي ٢٠ مايو سنة ١٥١٢ ذهب السفير لمقابلة السلطان المرة الثالثة وكانت هذه المقابلة سرية بمكان يدعى الميدان - وكان السلطان قاعدا على دكة مرتفعة ومتردياً بثوب ابيض « ازار » وكل اتباعه وحاشيته لابسون مثله وعلى رأسه عمامة كالتي كانت في المقابلة الاولى ذات قرنين بارزين . واما السفير فكان متردياً بثوب المزركش وحواشيه من القصب الذهبي فادناه السلطان اليه وبالغ في اكرامه حتى صار على بعد اربع اقدام منه . وقد صحبنا في هذه المقابلة فضلا الاسكندري كونتاريني المار ذكره . وولد من تجارنا البادقة في الاسكندرية . وكان الفضل متردياً بثوب الدوقي الرسمي من المخمل القرمزي والاكمام الضيقة وكان السفير يكلم السلطان بصوت عالٍ وترجمانه يعيد الكلام باللغة العربية وكان الحديث عاماً يتعلق بمهمة السفير وتقرير السلام والصلح بين حكومتي مصر والبندقية واعادة العلاقات التجارية . فامر السلطان ان يؤتى من السجن بتروزان فضلا في دمشق فحضر وهو مكبل بالحديد[1] وحدث جدال عنيف بين السفير والسلطان بشأن هذا الفضل فالسلطان يثبت عليه الخيانة والتجسس لعلاقاته السرية مع عدوه والسفير يبرئه مدعياً بانه لم يقصد الخيانة بل كان يكاتب اسماعيل شاه بنية سليمة واخيراً رأى السفير من مصلحة حكومته الانقياد لرأي السلطان فدنا من الفضل زان ووضع في عنقه القيد الحديدي وبذلك هدأ غضب السلطان وارتضى ان يسجن في قصر السفارة الى ان يحقق السفير التهمة عليه ويحاكمه واستمرت هذه المقابلة نحو ثلاث ساعات والسفير واقف على قدميه

(١) ذكرنا فيما سبق ان نائب السلطان في برجمك فوق حلب قبض على رسول قبرصي آخر من العجم ومعه كتب ورسائل من اسماعيل شاه صاحب الدولة الصفوية باسم هذا الفضل في دمشق وباسم ترمازو كونتاريني فضلا في الاسكندرية وارسلها الى السلطان الغوري فاشتد غضبه وامر ان يؤتى بالفضل زان من دمشق الى مصر مكبلاً بالحديد واتهمه بالخيانة والتجسس لعلاقته السرية مع عدوه اسماعيل شاه الذي ارتاح بعض المدن في بلاد بين النهرين التابعة للسلطنة المصرية واما كونتاريني فضلا من التهمة واطلق سبيله

وقبعته في يده . ثم خرج من لدن السلطان مع اتباعه والتجار والقناصل وذهب الى قصره (١)

المقابلة الرابعة

وفي اول يوليو ذهب السفير مع اتباعه ورجال السفارة والتجار البنادقة لمقابلة السلطان المرة الرابعة . وكانت هذه المقابلة سرية تختص بشؤون سفارته وفي اثنائها سمح بفتح كنائس بيت المقدس لجميع الزوار الافرنج . وفي ٦ منه ذهب السفير مع اتباعه وصحبه كثيرون من التجار الافرنج بين فرنسويين وبنادقة وانكليز للتفرج على اهرام مصر وارسل السلطان بعض الفرسان والمماليك لحراسته

(١) وهذا ما جاء في رحلة السائح نترد بشان هذه المقابلة الهامة نقلاً عن رسالة كتبها مارك انطونيو تربيزان ابن السفير وارسلها الى حكومة البندقية فقال : اشتد الجدال العنيف بين السلطان والسفير بشأن فصل دمشق بغروزان الذي كان محبوساً في القلعة لاكتشاف مراسلات له مع اسماعيل شاه . وكان السفير يدافع عن الفصل دفاعاً قوياً حتى سلامة نفسه وانه لم يقصد الخيانة . وان درتية البندقية تبرأ من هذا القصد . وكان السلطان انهاء هذا الجدال مرتجف غضباً وتهديداً واخبره ان يخرج في السفير وقال له بحدة « اني اعلم بسلامة نية حكومتك ولكن الخيانة ثابتة على فصلك هذا » . ثم اشار باصبعه نحو الفصل زان وقال للسفير وهو منقد غضباً « ان هذا الكلب الخائن كان يراسل عدوي واحد معه للايقاع بي واجتياح سلطتي » وكان السفير يهدأ غضباً ويتمتمة بتعطف وخضوع فاجابه السلطان بحدة « اعلم ايها السفير انك اذا كنت حضرت الى بلادي كسفير خلص من لدن حكومة صديقة مصافية لتقرير المحبة والصلح والسلام فاهلاً بك واما اذا كنت حضرت قاصداً تخليص هذا الخائن والاتحاد مع اعدائي وحماية الخونة والفصوص فاخرج من بلادي انت وكل تجارك البنادقة » فعند هذا التهديد الصريح اجاب السفير « انك تعلم يا حضرة السلطان المعظم باخلاص حكومتي لشخصك السامي واني لم آت الى مصر ولم اقف بين يديك الا لتقرير الصلح والسلام بينها وبين سلطنتك فها ان روحي وارواح جميع مواطني بين يديك فافعل ما انت فاعل . ولكن ان شئت فاسمح لي ان ارى تحقيق التهمة الملقاة على عاتق فصلك تحقيقاً عادلاً دقيقاً فاذا ثبتت عليه الخيانة وسوء النية فان حكومتي لا تغفل عن مجازاته ومعاقبته باشد العقاب لان دولة البندقية العادلة لا ترى الاشتراك في حل مغاير لمصالحها والخرق سلطنتكم السامية » فعند هذا الكلام غضب السلطان وقال « اذا كان الامر كذلك فخذ هذا الرجل وحاكمه واذا كانت دولتك عادلة صادقة مصافية لي كما قلت فاحكم عليه بالاعدام لانه جاسوس خائن للادي وبلادي . فتقدم جيغلر السفير من الفصل ووضع في عنقه القيد الحديدي واخذه معه الى قصره (انتهى كلام نترد) . وكانت نتيجة هذه المحادثة كما ذكر هذا السائح في رحلته ان السفير نزل تحقيق التهمة فظهر له ان الفصل زان لم يقصد سلامة نفسه مع اسماعيل شاه ومراسلاته له سوى اتحاد حكومة البندقية مع حكومة الصفوية الفارسية ضد سلطان الاتراك . فلما عرف السلطان قانصوه الحقيقة عفا عن بغروزان وانعم عليه بخلعة وسمح له ان يرجع فيتصل بحكومته في دمشق

سفير فارس في مصر

ولما تقرر الصلح بين السلطان قانصوه الغوري وبين عدوه اسماعيل شاه الصفوي ارسل هذا الى مصر سفيراً لمقابلة السلطان. وقد ذهبت مع بعض رجال السفارة الى القلعة لاتفرج على هذا السفير الفارسي فكان متردياً بثوب على الزي العجمي منسوج كلهُ بالذهب وحواشيه مطرزة بالقصب ومرصعة بالحجارة الكريمة وعلى رأسهِ قبعة عليها ريشة ثمينة طولها نصف ذراع منضدة باللؤلؤ ومثبتة بجوهرة كبيرة من الماس. وصحبهُ في مهمتهِ هذه مائة وخمسون فارساً من جنود الدولة الصفوية وكلهم بالابسة الفاخرة المنسوجة بالذهب والاسلحة الثمينة وكان دخولهم الى مصر بموكب حافل عظيم واحضر السفير الى السلطان هدايا ثمينة فاخرة في ستة وثلاثين صندوقاً بين اثواب حريرية وذهبية وحجارة كريمة وجواهر نادرة وجلود الفرو الثمين والاسلحة العجمية والسيوف المرصعة والصناجيق الفاخرة

سفير جورجيا في مصر

وفي اليوم نفسهِ وصل الى مصر سفير من ملك جورجيا وهي مملكة مسيحية في جبال القوقاس وكان هذا السفير متردياً بثوب مزركش بالقصب وعلى رأسهِ قبعة من فرو السمور ومعهُ ثلاثون فارساً من بلادهِ واحضر للسلطان هدايا كثيرة ثمينة من الفرو والسجاد الفاخر. والجورجيين كنيسة في القدس وهيكل في كنيسة القيامة اقفلت بامر السلطان منذ بضع سنين فحضر هذا السفير يرجوهُ باسم ملكهِ ان يأمر بفتح الكنيسة واسترداد هيكل القبر المقدس. فاستقبل السلطان هذين السفيرين معاً وهو جالس في مقعدهِ ولم يقف لهما

زيارة شجرة العذراء

وفي ٢٧ منهُ ذهب السفير لزيارة شجرة العذراء في المطرية واقام هناك رئيس رهبان القبر المقدس قداساً حافلاً حضرهُ رجال السفارة وكل التجار الافرنج ورأينا ينبوع العذراء والبيت الذي التجأت اليهِ مع ابنها وهناك بستان كبير من شجر البلسم والسلاطين يستخرجون منهُ عطراً زكياً ثميناً ويرسلونهُ هدايا الى ملوك والسلاطين [1]

وعند الينبوع المذكور شجر العذراء وهي من نوع يقال لهُ الجميز غير معروف عندنا ويقال لهُ ايضاً « تين فرعون »

---

(١) اغرضت هذه الشجرة من مصر منذ ثلاثمائة سنة وسنتكلم عليها تفصيلاً عند وصف النباتات المصرية وسنرسم صورة شجرة منها نقلاً عن كتاب رحلة ماريت فاضل جبرائل فرنسا في مصر على عهد لويس الرابع عشر

المقابلة الخامسة

وفي ٣٠ منهُ ذهب السفير لمقابلة السلطان المرة الخامسة وكان هذا في قاعة داخلية من قسم المسكن السلطاني الخصوصي وهي مزخرفة بالنقوش والرسوم البديعة على جدرانها وسقوفها ومموهة بالذهب فادخلنا الترجمان ورأينا السلطان في صدر القاعة جالساً على مقعد مرتفع ومستنداً الى حافة نافذة مطلة على فسقية كبيرة يتدفق الماء منها بشكل بديع ويسقط رشاشهُ على قصاري من الرياحين والازهار حولها ومياه هذه البركة من النيل يجري بالية فوق قناطر عالية من الخليج الى القلعة . وكان السلطان جالساً على دكة مقاعدها ومساندها من الدمقس القرمزي وبجانبهِ سيفهُ وترسهُ . ورأينا في احدى زوايا القاعة ثلاثة هوادج بديعة الصنع ملبسة بالمخمل ومطرزة بالنقوش والشريط الذهبي المرصع بالحجارة الكريمة وهي معدة لركوبهِ وركوب حرمهِ في الاسفار

وكانت هذه المقابلة في غاية الود والاخلاص والصفاء واستمرت نحو ساعة ثم استأذن السفير ورجع الى قصرهِ بعد ان تفرج على القاعة ومتاحفها ومعامل الاصلحة فيها . وصحبهُ في هذه الزيارة نائب القلعة

وفي ٩ يوليو ذهبت مع بعض اصدقائي لزيارة دير القديسة كاترينا وهو للارومام وليهِ مطران يتولى شؤون املاك دير طور سينا

المقابلة السادسة

وفي ٢٥ منهُ ذهب السفير لمقابلة السلطان المرة السادسة وكانت هذه المقابلة ودية سرية فجلس بجانب السلطان وعند خلائها قبل يدهُ وخرج

المقابلة الاخيرة

وفي اليوم التالي كانت المقابلة السابعة الاخيرة الوداعية فودع السفير السلطان واستأذن في السفر وصحبهُ في هذه المقابلة رجال السفارة وقنصلانا الدمشقي والاسكندري زائد وكونتاريني فلبسوا كلهم ثيابهم الرسمية الدوقية وهي من الديباج المقصب الحواشي اكمامها ضيقة وعلى صدر السفير وسام القديس مرقص الذهبي الساعي وكانت هذه المقابلة في قاعة الميدان الكبرى . فشكر السفير تعطفات السلطان لما لاقاهُ مدة اقامتهِ بمصر من الاكرام وحسن الضيافة واستأذنهُ في السفر والرجوع الى بلادهِ لانتهاء مهمتهِ . وفي اثناء ذلك تقدم المهمندار من السفير ونزع وشاحهُ الخارجي الملتف بهِ وهو مطرف واسع بلا اكمام يلبس فوق الثوب والبسهُ جبة من الديباج القرمزي على الزي العربي مبطنة بفرو السمور

الثمين على باقتها واكمامها وهي خلعة السلطان دلالةً على المبالغة في الاكرام كما انهُ خلع ايضاً على كونتاريني القنصل وعلى السنيور الشريف ماركو انطونيو ابن السفير جبة من الفرو الترمزي الأ انها اقل قيمة من خلعة السفير والبستي ايضاً خلعة من الحرير الاسود وكذلك ترجمان السفارة . فشكر السفير السلطان على هذه الخلع السنية وخرجنا من عندهُ بعد ان قبلنا كلنا يديهِ ولثمنا الارض احتراماً لهُ . واستقبلنا في اخارج حرس السلطان وماليكهُ بالموسيقى السلطانية اي الطبول والزمور وسرنا في شوارع مصر بهذا الموكب الحافل ونحن لابسون الخلع السلطانية الى ان وصلنا الى منزلنا وهناك استقبلنا كل التجار البنادقة والنزلاء الافرنج وهنأوا السفير بنجاح مأموريتهِ

حفلة قطع الخليج

وفي اليوم عينهِ دعينا لحفلة قطع الخليج حيث كان مهرجان عظيم حضرهُ نائب السلطان وكل امراء وعظماء السلطنة واقيمت الملاعيب والزينات البديعة [1]

السفر من ميناء بولاق

وفي اليوم الثاني من شهر اغسطس ذهب السفير مع الباشا الى ميناء بولاق وقد أمر السلطان ان تجهز لنا المراكب السلطانية لنقلنا الى دمياط وارسل ترجمانهُ الخصوصي لمرافقتنا . فاقلعنا بعون الله وتوفيقهِ وعزنا في النيل العظيم

الوصول الى دمياط

وبعد يوم وليلة وصلنا الى مدينة دمياط عند شروق الشمس وكان في مرفاها كثير من المراكب التجارية لكل طوائف الافرنج . وكان الاسطول البندقي راسياً في البوغاز . فنقلنا اتباعنا وصناديقنا الى مركب السفارة وتهيأنا للسفر الاَّ ان حاكم دمياط اعترضنا ومنعنا من الخروج من دمياط لان بعض مراكب قرصان مالطي يوحنا في رودس ظهرت في عرض البحر بعض المراكب التجارية المصرية والحاكم طلب من السفير ان يرسل بعض مراكب من اسطولهِ لاستخلاصها من هؤلاء القرصان . فابى السفير وقال انهُ لا سلطة لهُ على مطاردة مراكب حكومة رودس وان دوقية البندقية غير مسئولة عنها واخيراً بعد جدال عنيف بين الحاكم والسفير تداخل ترجمان السلطان في المسئلة فاجيز لنا السفر

---

(١) عند ذكر الحفلات المصرية سنقل صورة مهرجان قطع الخليج كما رسمها يدري الشغ توردن السفاركي الرحالة والمصور الشهير الوفد من قبل ملك الشغاريك لزيارة مصر سنة ١٧٣٧

السفر من دمياط

وفي اليوم السابع من اغسطس ركبنا من البوغاز واقلع بنا المركب في ريح موافقة معتدلة وخرجنا من بوغاز دمياط وجزنا في طريقنا جزر قبرس ورودس والارخبيل الروماني وكريت (وهنا ذكر صاحب السياحة كل البلاد والجزر التي اجتازها السفير فلا حاجة الى اعادة ذكرها) والتقينا في طريقنا بالقرب من كريت بمركب صغير لقرصان الاتراك . الاّ ان اسطولنا توارى عنهُ وتخلصنا من شرهِ بعون الله

العود الى البندقية

ثم دخلنا في البحر الادرياتيكي وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر اغسطس وصلنا مدينة البندقية المحروسة من الله وكان لنا استقبال حافل من الشعب ورؤساء الدولة وحكامها . انتهى

وقد وصف باغاني صاحب هذه الرحلة مصر واهلها وشوارعها ونساءها وتجارتها وما لاقاهُ فيها من الغرائب والنوادر وسنأتي على ذلك عند الكلام على المدن المصرية

الوزير اسماعيل باشا

يظهر ممَّا تقدم ان مصر كانت في سعة في عهد الغوري آخر سلاطينها وان الاموال كانت تأتيها ثمناً للبضائع التي كانت تصدر منها الى بلدان اوربا اما من حاصلاتها او من الواردات اليها من الهند والسودان وقد بقي لها شيءٌ من السعة بعد ما استولى الاتراك عليها . فقد عثرت على فصل في كتاب قديم لدي ماليت فنصل قرنسا على عهد لويس الرابع عشر سنة ١٦٨٥ يدل على ما كان عليهِ الباشاوات حكام مصر من الابهة والغنى والاسراف وسعة العيش فقد اقام دي ماليت قنصلاً جنرالاً في مصر نحو ست عشرة سنة درس فيها اخلاق المصريين وعوائدهم وكان على جانب عظيم من الدعة واللطف ودماثة الاخلاق يحبهُ الاهالي عامة . وكان كل من ولي مصر من الحكام يحبهُ ويجلهُ ويصادقهُ واختلط بعلماء مصر ووزرائها واعيانها وبطاركتها فكانوا يزورونهُ وكثيراً ما كانت دار القنصلية بحي الافرنج مجتمعاً لهم . وكتب رحلة مطولة عن مصر ومدنها واهلها وعن نباتاتها وحيواناتها ومعادنها وتجارتها والنوادر الغريبة التي حدثت في عهدهِ بين الافرنج والحكام والاهالي وكتب تقريراً سرياً عن بلاد الحبشة بعد ان صادق نائب السلطان في سواكن وكانت هذه المدينة محطة المواصلات بين مصر والحبشة كما سيأتي بيان ذلك في باب المدن المصرية

وكان الوزير اسماعيل باشا حاكم مصر ونائب السلطان على عهدهِ فاقام مهرجاناً عظيماً

صورة دي مالبت

قتل فرنسا الجنرال في مصر في عهد لويس الرابع عشر سنة ١٦٨٥ . وعلى رأسه الشعر العارية الذي كانوا يلبسونه في زمانه وعلى احد ساعديه زرد كزرد الدرع

مقتطف مايو ١٩١٢
امام الصفحة ٤٧٨

لطان ابنهِ ابرهيم بك دعا اليهِ امراء مصر وحكام مديرياتها ورؤساء اجنادها وعلماءها وبطاركتها حتى ان عامة الاهالي اشتركوا في افراح هذا المهرجان . وهذا ما كتبهُ القنصل المذكور عن اسماعيل باشا ومهرجانهِ قال :

« كان اسماعيل باشا اوزير من رجال الدولة العظام واحد قواد الجنود التي ارسلها سلطان الاتراك لمحاربة النمسا فلما استولى المجريون والبافاريون على بودابست واستخلصوها من الترك أخذ هذا القائد اسيراً مع ابنهِ البكر ثم تخلص من الاسر ورجع الى القسطنطينية ونقلب في مناصب الدولة . ولما تولى السلطان احمد الثالث كرسي المملكة عزلهُ فدخل في مجافات الانكشارية او بالحري تحت حمايتهم فقربهُ السلطان اليهِ وارسلهُ حاكماً على جزيرة سالونيك ثم ولاهُ ايالة صيدا والشام وفي صيدا مات ابنهُ البكر فتم حزناً عليهِ وبنى لهُ فيها مدفناً عظيماً . ثم ارسلهُ السلطان الى مصر نائباً عنهُ وحاكماً مفوض السلطة

« ولباشاوات مصر موارد كثيرة وتحت تصرفهم ثروة البلاد كلها وايرادات بيت المال ورسوم الكمارك وتحويل ملكية الاطيان والاراضي من اسم لآخر اذا توفي صاحبها بلا وارث او قبل اربعين يوماً من استلامها ولو كان ذا عقب فترجع الى بيت المال لان كل الاراضي المصرية معدودة من املاك السلطان ولذلك كان اسماعيل باشا متصرفاً في الايرادات المصرية بصفتهِ نائباً عن السلطان . وكان كريماً كثير الاسراف والبذخ حتى انهُ لما عزل حوسب على المال الذي استولى عليهِ في مدة ولايتهِ فوجد مديوناً بنحو ثمانمائة الف دوقة ذهب . ولما كان مقرباً من رجال الدولة في اسطنبول لم يؤاخذ بالشدة والتضييق بل ولي ولاية اخرى من ولايات السلطنة بعد ان وعد ان يجمع منها الاموال باية طريقة كانت و يوفي الديون التي عليهِ للخزينة السلطانية . ولما عزل ارسلت السلطنة عوضاً عنهُ رامي باشا الصدر الاعظم الشهير حاكماً على مصر . وكان القنصل ماليت صديقاً ودوداً لاسماعيل باشا وكثيراً ما كان هذا يستشيرهُ في امورهِ الخصوصية وشؤون الولاية . وكانت ايرادات السلطنة وتشتمل من الولاية المصرية الف ومائتي كيس[1] عدا الاموال والحاصلات والحبوب التي كانت مفروضة على باشاوات مصر لدار السلطنة والحرمين (مكة والمدينة) ستأتي البقية ديمتري نقولا

(١) تعادل قيمتها الآن نحو مليوني فرنك . وقال عنوت في رحلتهِ سنة ١٦٥٠ ان ايرادات السلطنة من الباشاوية المصرية تبلغ قيمتها ثمن خزنات . والخزنة ١٢٥ كيساً ترسل منها خزنتان لدار السلطنة خراج الولاية وخزنة الى مكة وخزنة لنفقات الباشا والخزنة الخامسة مرتبات الجنود والموظفين